السبـــــــت 06-10-2007

36- الطفـل: "مشـروع" يحمل كل النقائض!! فا تختزلـوه !!

الطفل يجمع بين جمال الفطرة، وقسوة البدائية القاتلة، وجمال الطزاجة، وسلبيات البراءة!!!

من منا يعرف ذلك؟

من منا يستطيع أن يتحمل رؤية أو تصور كل هذه التناقضات ليسيوعبها وهو يتعامل مع طفله، أو يقوم بتربيته؟

من منا يبحث عن طفله بداخله، والذى ما زال يحمل كل ذلك معا،

من منا يعرف أنه بغير مواجهة هذا التناقض وقبوله ليتحرك ، لن نتكامل أبدا.

.....

كيف نرى الطفل؟ وكيف نتعلم منه؟

هل تسعفنا المناهج التقليدية، وهل تكفى المراجع الأكاديمية؟

قلت مكررا بصريح العبارة أنى تعلمت عن نفسية الطفل من قراءتى النقدية لديستويفسكى (مثلا): **"نيتوتشكا نزفانوفا، والفارس الصغير"**، ما لم يصلنى من كل مراجعى العلمية عن الأطفال، ثم إنى حين قارنت شعر شوقى للأطفال بقصص هانز كريستيان أندرسون **"أطفالنا: بين روح الشعر ونظم الحكمة" (وجهات نظر - مارس 2005)** شعرت أن الأخير هو الذى يكتب الشعر مقارنة برجز الأول الشديد الجودة. أندرسون يبحر فى طبقات وعى الأطفال بطلاقة سلسة غامضة مفجرة، أما شوقى، فهو بكل رقته وحذقه يخاطب سلوك الأطفال، وينمى أخلاقهم، ويسخر من خلالهم بالكبار وبالساسة، بشكل رشيق خفيف ظريف مسل، ودمتم.

حين كتبت فى يومية 30 سبتمبر أن الأطفال يمتلكون وسائل معرفية أبسط وأعمق تجعلهم يدركون بشكل مباشر ما يعيشه الصوفى فى علاقته بالله أحسن منا، قلت بعد أن عقدتها بكلام شديد الصعوبة

"... أحيانا أشعر أن هذا الكلام شديد البساطة – أى والله- فأنسى نفسى وكأنى لا أعلم ما آلت إليه أقفال العقول التى أغلقت بمنظومات علمية سطحية، أو دينية مؤسساتية، فأرجع للأطفال أخاطبهم ، فأجد خطابهم أسهل، وأنا واثق أن إدراكهم أبسط وأعمق معا"

أضفت فى آخر هذه اليومية حوارا غنائيا بين طفلين يمتدون بدهشتهم حتى يحبون الله وهم يتعرفون عليه بأدوات الفطرة المباشرة التى هى هى ما يشحذها المتصوفة، وهم يحاولون تدريبنا عليها، ولم يعقب أى من المتحاورين على الربط بما يدفعنى لمزيد من الشرح.

كل القنوات المعرفية التى أحاول تقديمها، لنتعرف بها على أنفسنا نجدها عند الأطفال والأميين، ليس بمعنى البدائية، وإنما بمعنى **"ما لم يتشوه بعد"**. يبدو أننا نمحو الفطرة مع محو الأمية، **فنرجع أميين نعرف القراءة الكتابة، وتموت الفطرة!!**

ما لم نحافظ على آليات المعرفة التى تميزنا أطفالا، فسوف نظر بشرا مبتسرين حتى نقضى مشوهين، بعد أن نجهض مسيرتنا إليه.

إن الذى يأخذ مسألة محاولة التعرف على الأطفال بعمق كاف، لابد ان يتحمل كل النقائض،

أحيانا أشعر أن اختزال الطفل إلى ذلك الكيان الدمية هو جريمة ليست أقل من التكيز على براءته البلهاء وإغفال كل ما عدا ذلك.

نحن نصور الأطفال لأنفسنا كما نشتهى، لا كما هم، داخلنا أو خارجنا .

أطفال التلفزيون، وأطفال مواثيق حقوق الأطفال، وأطفال الفيديو كليب ليسوا أطفالا

فمن هم الأطفال؟

فيما يلى صورا مختلفة لبعض تجليات للطفولة، وهى شديدة التنوع حتى التضاد أحيانا، لكنها فى مجموعها لا تمثل إلا الأطفال هم هم، وليسوا هم الذين نرسمهم لنا.

1) يستشهد مؤلف جاد بقول المسيح عليه السلام لأتباعه أنهم لن يدخلوا ملكوت الله ، (أى الإحاطة بأسرار الإنجيل، فى رأى المؤف: حارث الشوكانى: كتاب البرهان فى بيان عقيدة التوحيد من الإنجيل والتوراة والقرآن)) **إلا إذا تعلموا تعليما جديدا كما يتعلم الأطفال**، نقرأ هذا النص:

"..ودنا التلاميذ فى ذلك الوقت إلى يسوع، وسألوه من هو الأعظم فى ملكوت المسوات، فدعى يسوع طفلا وأقامه فى وسطهم، وقال: االحق أقول لكم، إن كنت لا تتغيرون وتصيرون مثل الأطفال فلن تدخلوا ملكوت الله، من اتضع وصار مثل هذا الطفل، فهو الأعظم فى ملكوت السماوات...."متى (18)

المسيح عليه السلام لا يدعونا إلى أن نرتد أطفالا، ولكنه

ينبهنا أن نحافظ على طزاجة طفولتنا التى نتعرف بها على الطريق إلى ملكوت الله..، التغير لنصير أطفال هو شحذ أدوات المعرفة جميعا بما فى ذلك كيف يعرف الطفل الدنيا وهو يتطور ليكتسب أدوات جديدة دون أن يفقد ادواته الأولى.

تلك هى المسألة الصعبة،

هذا ما قلته منذ سنة 1972 فى ديوانى سر اللعبة، ثم شرحته بإفاضة فى **"دراستى فى السيكوباثولوجى"**

لن ينجو أحد من هول الزلزال
إلا من أطلق للطفل سراحه
كى يضعف ... أو يخطئ ... أو يفعلها
لن ينجو أحد من طوفان الحرمان،
إلا من حل المسألة الصعبة،
أن نعطى للطفل الحكمة والنضج،
دون مساس بطهارته، ببراءته، بحلاوة صدقه،
أن نصبح ناسا بسطاء، لكن فى قوة،
أن نشرب من لبن الطيبة سر القدرة،
كى نُهلك - حبا - غول الشر المتحفز
بالإنسان الطيب

***

هل يمكن؟؟
هل يمكن أن نجعل من ذاك الحيوان الناطق:
إنسانا يعرف كيف يدافع عن نفسه..
ببراءة طفل،
وشجاعة إنسان لايتردد... فى قول الحق،
بل فى فرضه؟
تلك هى المسألة الصعبة.
هل يمكن؟؟
هل يمكن أن نضعف دون مساس بكرامتنا؟
أن نضعف كيما نقوى
أن يصرخ كل جنين فينا حتى يُسمع
****
أن نطلق قيد الطفل بلا خوف وبلا مطمع
أن يعرف أنا لا نرجو منه شيئا..
إلا أن يصبح أسعد منا
ألا يخدع
.....
.....
لكن كيف؟
سأقول لكم كيف...
كيف 'يكون' الإنسان الحر،
يترعرع فى أمن الخير
ينمو فى رحم الحب
حب الكل بلا قيد أو شرط
حب لا يسأل كم... أو كيف...
أو حتى من؟

حب يقبل خطئى قبل نجاحى
حب يقظ يمنعنى أن أتمادى
يسمح لى أن أتراجع
حب الأصل، لا حب المظهر والمكسب
وبريق الصنعة،
حب يبنى شيئا آخر غير هياكل بشرية،
تمشى فى غير هدى،
تلبس أقنعة المال، أو نيشان السلطة
سأقول لكم كيف:
بالألم الفعل،
والناس الحب
ينمو الإنسان:
طفلا عملاقا أكمل،
يسعى نحو الحق القادر
مثل الأول .... مثل الآخر
والقامة تمتد إلى ما بعد الرؤية

ذات مرة أخرى، فى أوائل السبعينيات، كنت جالسا على شاطئ النيل ومعى صديقاى (5،7 سنوات: أحمد، وعلى: أحدهما الآن مهندس ملتح وزوجته منقبة!!!!، والآخر، استشارى جراحة عظام فى إنجلترا)، وكنا ننتظر حتى نؤجر مركبا، أصحبهما فيه، أنا أمسك بالمجدافين وهما يهللان لعبا فى الماء بأيديهما، رأينا طفلين آخرين، يتعلمان الصيد، لعلهما ولدين لصياد ما، كان مركبهما يتهادى وهما يحاولان بإصرار جميل، فكتبت قصيدة بعنوان ": **"العقلة والإصبع"** أصف ما وصلنى:

وبغير شراع أو دفةْ
سارَ المركبْ،
نزل صبيّان إلى الميدان بدون سلاحْ
أحدهما جلس على المجداف يحركه:
عقلة إصبعْ،
والآخر يلقى بالشبكة:
شبراً شبراً
والنيلُ تمطي فى سأم،
أغمض جفنَه،
وتناوم يرفض لعبتهم،
أخفى سَمَكَه،
والإصبعُ يجذبُ حبل الأملِ يطاولُهُ
تفلتُ منهُ بعضُ خيوطِهْ
يجذبُ أخرَى،
وأخيْرَى تجذبه نحوى،
لكن النيل يعاندهُ،
والأملُ يعودُ يعاودهُ
وبعيدا فى وسط الحلقة... لاحتْ سمكة،
فأضاءت فى وجه العقلةْ: قمراً بدْرَا،
والإصبعُ قفزَ من الفرحةْ – إذ أمسكَها
وقبَيْلَ طلوع الروح تمايلتِ المركبْ
قفزتْ فى النهر عروسُ البحر بدون وداع..

والعقلةُ نظرتْ للإصبعْ، وتنهدتا، ..
وتحركَ قاربُنا يسعى ...
أتبع سببا.

وجه الطفولة الآخر:
أما الوجه الآخر للطفولة البدائية المنفصلة ، التى تصل إلى حد القتل البارد ، فهو موجود أيضا وتماما داخلنا وخارجنا مهما حاولنا أن نطمسه، بل إن اعترافنا به هو الذى يقلبه قوة إيجابية عل مسار النمو والتكامل،

لا تنزعجوا ولنتذكر معا:
- هل ريتم طفلا يقضم رقبة عصفور وهو يضحك؟
- هل رأيتم أطفالا تسحب قطة مربوطة من رقبتها بحبل متين رفيع، أو سلك صلب حتى تموت؟
- هل سمعتم المثل الصينى الذى يقول:

"يقذف الأطفال الضفادع بالحجارة وهم يمزحون، ولكن الضفادع تموت جِدّا لا هزلا. .."

ألهمنى هذا المثل وأنا أصور هذا الجانب الآخر للطفولة (الذى يكمن داخل القتلة الظلمة الكبار كأبشع ما يكون) ألهمنى هذه القصيدة بعنوان الأطفال والضفدع:

-1-
أمطرتِ النارُ الناسَ حجارهْ
. . .
عرجتْ، رقصتْ، مالتْ، همدتْ
صاح الأطفالُ النظارة:
إحذرْ ترجعْ للماءْ
-2-
زحف الحجرُ يفلطح وجهَ البشمهْ
تابعه القاتلُ يتبخطرْ
وتناثرتِ البقعةْ
-3-
. . .
رفعوا حجرا أثقلْ
أشلاءٌ داميةٌ قلقةْ
-4-
- لم لا تتحركْ تهربْ؟
لم لا نكملْ نلعبْ؟
- حمقاء
حرمتْنا دورا أجملْ
مفروضٌ أن تبقى حيهْ
حتى نكملْ نلعبْ
- لكن يمكننا الآنْ: قصف الأحشاء
والأشطرْ
يدُميها أكثرْ
- دورٌ أسخفْ

فالفرحةُ واللذة
في القفزةِ والهزّة

-5-
وتساءلَ عابرْ:
لم خرجتْ من رحم الماءْ؟
لم ظلتْ حيّةْ؟
لم قفزتْ عرجتْ،
سكنتْ، ماتتْ؟
قالت سمكةْ:
[كانتْ رَفَضَتْ رقمَ السلّمْ]
- برْمَائيّة؟
ما أغباهَا كلمهْ
الذنبُ عليهَا
لم تحفظ قانون السادة:
"المقتول أحق بحكم الإعدام"
-6-
كتب القاضي:
- حيث يحقُّ لطفلِ القوةِ يلعبُ بالحريّةْ
يُمنح حق اللهو بقدر الأحياءْ
- حيثُ تقبلَ ذاك الأعزلُ شرط اللعبةْ.
يُقْتَلْ
- ماتْ!!!!
أذنبَ: حرم الأطفالَ الفرحةْ
حرمَ القاضي -أيضا - حُكْمًا مشمولاً بنفاذْ
-7-
- ولذلك:
"لزم التنبيه بألا تطلع روح الميت،
دون استئذان"

إذا كنا نريد أن نرى الأطفال على حقيقتهم، فعلينا أن ننسى هذا الاختزال الماحى للجانب الآخر من بدائيتهم، ذلك الجانب الذى سلختْه منفصلا، لأصف أبشع تجليات ما يسمى "البراءة" الخادعة أو السلبية فى قصيدة علىّ أن أعتذر لكم وأنا أقدمها:

فى هجاء البراءة

- 1 -
براءةٌ ممتهنةْ،
تنازلت عن حوْلها والقوة
-2-
براءة بُاهتةٌ
قد حال لونها وظلّلتْ
بالسهو والعمى
أهَالَ الثقال.
- 3 -
براءة قاسيةٌ

تقتل بالإغفال والمسالمة،
وتلصق الجريمة،
بموتىَ اليقظ.

- 4 -
براءة ساكنة
تقطعت أطرافها، فساحت الحدود
مائعة مرتجة.
- 5 -
براءة زاحفة مبتلة،
قد سبّبت مقابض الأفكار.
براءة سارقة:
من فطرتى عبيرها وبعثها.
- 6 -
براءة جبانة غبية،... وكاذبة،
قد لوّحت لمثـــــلنا،
بالجنة الموات والسكينة،
فناء ظهرُنا بكدْحنا،
ومادت السفينة.
- 7 -
بُراءةٌ خاتلة،
وتاجرة
تُطل من بسمتها المسطحة،
معالمُ المؤامرة
والصفقة الخفية.
- 8 -
براءة مشلولة،
تنتف ريشَ نورسٍ محلِّق معاند
تخشى به الوسادة،
تزيّن القلادة.
-9-
تكاثـــرَ الجرادْ
جـــحافلُ البـــشرْ،
كـــالـــدودِ والجـــــــذورْ،
تغوص فى اشتياق،
فى الطين والعفنْ.

1982/4/28

حتى لا تنزعجوا، هذه البراءة البشعة، برغم أنها أرجعتنا إلى **أجمل أقذر أصل الإنسان الأصيل**، إلا أنها ليست هى هى الطفولة طبعا، **إنها الجانب الآخر، الذى بدونه سنظل نتعامل مع الأطفال الذين فى أذهاننا، لا الذين خلقهم الله**

تخفيفا لما أصابكم ، كما أصابنى، أختتم اليوم بتقديم ، صورة رقيقة حانية من **طاغور**، تؤكد خصوصية واختراق المعرفة الطفلية الفطرية الرائقة المخترقة، (أصل الصوفية) عنوان القصيدة **"درب الطفل"**

"..إن الطفل الصغير يحيط بجميع ضروب الكلام السديد، غير أن الذين يدركون معناها قلائل.

فليس عبثا ألا يرغب فى الكلام

إن فى حوزة الطفل الصغير أكواما من الذهب والآلئ، "

ثم يصف طاغور اللغة بين الطفل وأمه فيقول

"..... لم يكن الطفل يعرف البكاء، كان يسكن أرض الغبطة، (أما الآن) فلديه سبب يحمله على ذرف الدموع، أجل، رغم أنه يداعب بابتسامة من وجهه أوتار قلب أمه فإن نشيجها الرقيق المنبثق من ألامه الصغيرة، هو الذى ينسج بينه وبين أمه رباطا مزدوجا من الحب والرحمة"

.....

ولنا عودة

وعودة